قراءة في كتاب "مشكلات الحياة الزوجية في الواقع المعاصر"

تغيرت الحياة الزوجية في الغرب تغيرا جذريا بشكل يجعلها تمثل تهديدا خطيرا لأسر الأقليات المسلمة الموجودة في هذه البلدان، نظرا لما تعانيه هذه البلدان من أمراض اجتماعية خطيرة، حيث التحلل من آصرة الزواج إلى ارتباط هش لأشخاص يعيشون معا دون سند شرعي، فضلا عن اعتماد وانتشار العلاقات المثلية التي تبيح زوج الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة. وفق كل هذه المعطيات جاء كتاب "الحياة الزوجية في الواقع المعاصر.. مشكلات واقعية وحلول عملية"، للدكتور صلاح سلطان.

كتاب "الحياة الزوجية في الواقع المعاصر .." يناقش المشكلات التي تهدد الأسرة المسلمة في الغرب، وفي ديار الإسلام من خلال السعي الحثيث من جانب الحضارة الغربية لعولمة نظامها الحضاري، ومحاولة فرض نظامها الاجتماعي على كافة الشعوب والحضارات، باعتباره النموذج المثالي، رغم ما يحمله ويبشر به من سموم كفيلة بالقضاء على هويتنا الإسلامية في حال التقاعس عن مواجهة فرضه علينا. ولعل أهم ما يميز هذا الكتاب أنه تجاوز عملية الرصد والتشخيص للعلل الاجتماعية في بلاد الغرب إلى وضع آليات علاجية لها مستندة إلى مرجعية إسلامية.

أرقام مفجعة

لم يعتمد الكتاب في رصده لمظاهر التفكك الأسري في بلاد الغرب سوى الأرقام، التي جاءت مفجعة للناظر والمتأمل لدلالاتها الخطيرة، فكان أول ما قام برصده الارتفاع الملحوظ في نسب العزوف عن الزواج، التي وصلت إلى 85% في أمريكا، التي وصلت فيها نسب الطلاق لأكثر من 50%، في حين وصلت نسب الطلاق في بلجيكا إلى 69%. وصار ثلث أطفال أمريكا يولدون خارج إطار الزواج، وزادت نسبة الزنا من سن 10 سنوات. كما ارتفعت معدلات حمل الفتيات (10 . 15) في الولايات المتحدة إلى 12.901 فتاة في العام 2003.

كما رصد كتاب "الحياة الزوجية في الواقع المعاصر.." نسبة كبار السن الذين يعيشون بمفردهم والذين تجاوزت أعمارهم 85 سنة فبلغت 70% في بريطانيا وحدها. كما ارتفعت معدلات المرأة التي تعول أولادها بمفردها إلى 10 ملايين امرأة سنة 2003، بعد أن كان 3 ملايين سنة 1970. يضاف إلى ذلك عدم الرغبة في الإنجاب، واستخدام العنف ضد النساء والأطفال، والاندفاع نحو الزنا والسحاق واللواط، وانتشار المخدرات والمسكرات بين الشباب والفتيات.

واحتوى الكتاب على 23 شكلا بيانيا وضحت المعدلات المختلفة في عدد من السنوات للذين لم يسبق لهم الزواج في أمريكا، والزيادة في نسبة غير المتزوجين في فيها من 20 إلى 44 سنة، وعدد الزيجات والطلقات لكل ألف من سكانها، وارتفاع نسبة الأبناء الذين تمت ولادتهم خارج دائرة الزواج في كل من أمريكا وبريطانيا، وعدد الأسر التي يرعاها الأب منفردا، والنسب المئوية لتعاطي المواد المخدرة لطلاب الثانوية العامة في الولايات المتحدة، ونسب الرجال والنساء في بريطانيا فوق سن 85 ممن يعيشون بمفردهم، وغير ذلك من جداول توضح بالأرقام والنسب هذه المشكلات الخطيرة.

المادية تشوه الأسرة

تناول الكتاب واقع الحياة الزوجية في الغرب بشكل عام، غير أنه ركز عليها في الولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص؛ في محاولة منه للعثور على تفسير منطقي لما آلت إليه أحوال الأسرة في الغرب، فبدأ بتناول تطور مفهوم الأسرة في المجتمع الأمريكي من خلال رؤية عالمي الاجتماع الأمريكيين "لينا وجون سكانزوني" اللذين تتمحور رؤيتهما للأسرة الأمريكية وتطورها من خلال تطور وضعية المرأة بها، والتي كانت في البداية لا تتعدى كونها خادمة لزوجها وساد هذا المفهوم ما بين عامي (1830-1890م)، ثم تطور الأمر ليصبح الزوج هو المسئول والقائد، بين عامي (1890-1920م)، والزوجة تساعده، ثم أصبح الزوج هو المسئول الرئيس، والزوجة هي المسئولة الثانوية، ومع زيادة فرص العمل بدأت المرأة تشارك مشاركة أساسية في بناء المجتمع، ووصل عدد العاملات 14% من النساء حتى عام 1940م، الأمر الذي أدى إلى تطور ملحوظ في وضعية المرأة التي أصبحت تساوي الرجل تماما منذ عام 1970م إلى الآن.

وأشار كتاب "الحياة الزوجية في الواقع المعاصر.." إلى أن التطور السابق الذي تعرضت له الأسرة الأمريكية قد جعل للبعد الاقتصادي أهميته في الزواج، مما أثر في ارتفاع نسبة العنوسة، وتصاعد الشعور بالفردية، وتضاءلت فكرة التضحية من أجل الأولاد فزادت معدلات الطلاق؛ وبالتالي ارتفعت نسب حرمان الطفل من الأبوين معا، أو أحدهما على الأقل، وتحولت العلاقة بين الآباء والأبناء من الحب مع الخوف إلى المساواة والندية، مما أدى إلى ارتفاع نسبة كبار السن الذين يعيشون بمفردهم، أو في بيوت الرعاية للمسنين، إضافة إلى القضايا والمشكلات التي جاءت في صدر الكلام وثناياه.

رؤية تحليلية

ويقدم الدكتور "صلاح سلطان" رؤية تحليلية تبين العوامل التي أدت إلى وقوع هذه المشكلات الأسرية في المجتمع الغربي، فكان افتقاد المجتمعات الغربية للرؤية الشرعية الإسلامية لمفهوم الزواج هو أهم العوامل التي أدت إلى انتشار هذه العلل بها. مؤكدا على أن الرؤية الإسلامية للزواج تتمحور في أهداف الزواج التي تتمثل في الألفة العاطفية والنفسية بين الزوجين، والإشباع الجسدي، وإنجاب الأبناء وحسن تربيتهم، ثم التقارب الاجتماعي؛ ومن ثم افتقاد الغرب لهذه الروية أدى إلى اختلال التوازن بين احتياجات الجسد والعقل والروح وعمارة الدنيا والآخرة، واختلال معايير اختيار الزواج، والغفلة عن مقاصده وأهدافه، وعدم وضوح أهداف وأساليب تربية الأبناء سواء أكانت تربية إيمانية أم اجتماعية أم مادية.

أما ثاني هذه العوامل فقد أرجعه الدكتور سلطان إلى ضعف الالتزام بوسطية الإسلام في تعامل الرجل مع المرأة، الذي يضمن سلامة الحياة الزوجية من كثير من المشكلات إن لم يقض عليها تماما، ومن العوامل الأخرى التي أشار إليها الكاتب في هذا الصدد ضعف الوازع الأخلاقي في الواقع المعاصر، وضعف مجاهدة النفس أمام إغراء المال؛ مما يؤدي إلى رفع المال فوق مرتبته بشكل يؤثر على أمور أهم منه بكثير يأتي إهمالها على الحياة الزوجية من قواعدها.

وأشار إلى أن التجاوز في استعمال الحقوق والتعسف فيها يشكل خطورة كبيرة على أمن الأسرة، كما في استغلال الرجل لقوامته بطريقة بعيدة عن مقاصد الشرع وحقائق الدين، وكما في استغلال وتعسف المرأة في استخدام القانون الذي يجعل كثيرا من الزوجات -لأدنى ملابسة- يطلبن الانفصال عن أزواجهن لأمور ربما ادعتها المرأة ظلما وزورا، مما يبدد كيان الأسرة، ويحطم استقرارها، وهذا هو الحادث في الأسرة الغربية.

حلول عملية

من أهم نقاط القوة في كتاب "الحياة الزوجية في الواقع المعاصر.." أنه لم يكتف برصد وتشخيص العلل الاجتماعية في بلاد الغرب لكنه حاول الاجتهاد في وضع الحلول العملية لهذه المشكلات. ودعا المسلمين في بلاد الغرب إلى وضعها في اعتبارهم عند تكوينهم لأسرهم، وجاءت حلول الكاتب المقترحة في خمس نقاط كالتالي:

النقطة الأولى تحدثت عن ربانية بناء الأسرة المسلمة من خلال وضوح رسالة الأسرة في الحياة وأهدافها، والوسائل العملية التي تصنع هذه الأهداف، مع التأكيد على أهمية وجود برنامج عملي يصبغ الحياة الزوجية والأسرة كلها بالصبغة الإيمانية.

النقطة الثانية تحدثت عن ربانية الاختيار عند الزواج، حيث مراعاة درجة التدين المطلوبة، والمستوى الأخلاقي والتعليمي والاجتماعي، وإجراء الاستشارة والاستخارة عند الاختيار وغير ذلك، مع مراعاة لزوم الاختلاف بين البشر كسنة من سنن الله في خلقه. وأكد على تيسير إجراءات ومصروفات الزواج كضرورة تفرضها طبيعة العصر الذي نعيشه.

النقطة الثالثة فكانت عن ربانية إجراءات الزواج التي تشمل التيسير في النفقات والمتطلبات، لا سيما في هذا العصر الذي أصبحت فيه المغالاة في المهور ومراسم الزواج سمة أساسية من سماته.

النقطة الرابعة جاءت عن ربانية الحياة الزوجية التي تقوم على أسس ثلاثة، وهي الحب القلبي، ثم التفاهم العقلي، ثم التناغم الجسدي، وهي مفاتيح في غاية الأهمية؛ حيث يمثل اجتماع مفتاح الحب القلبي مع مفتاح التفاهم العقلي تمهيدا للطريق إلى التناغم الجسدي، ويجعلان للعلاقة الجسدية بين الزوجين نسمات رائقة ولمسات رائعة ليتحقق الإشباع والإمتاع معا، فإن غاب أحد هذين المفتاحين فستكون هذه العلاقة تفريغا أجوف لنزوة عابرة.

النقطة الخامسة تحدث المؤلف فيها عن ربانية الحياة الزوجية في الأحوال المتغايرة، ومراعاة ما شرعه الإسلام من سلوك في تلك الأحول ومنها: طارئ السفر، وطارئ المرض، وحالة عدم الإنجاب، وحالة الفقر بعد الغنى. مؤكدا على ضرورة وجود مروءة نادرة وأخلاق راقية في التعامل مع تلك الأحوال المتغايرة؛ حيث تكون رصيدا كبيرا للزوجين للتغلب على كافة المشكلات.

وصفي عاشور أبو زيد